مجلة العلوم الإنسانية، ١٤٢٥ هـ. ق، العدد ١١ (٢): ٥٥_٦٤

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

صدى المرأة في الاعمال النقدية الواقعية لنجيب محفوظ

للدكتورة كبرى روشنفكر[1*]، صلاح‌الدين عبدى[2]

تهدف المقالة ابراز دور و مكانة المرأة في الأعمال الأدبية الواقعية لنجيب محفوظ، من خلال اعماله الناقدة و ذلك بتصويرها في شتى طبقات المجتمع؛ السفلى و الوسطى و العليا.

و ترى المقالة أن المرأة في اعمال نجيب محفوظ من الناحية الاقتصادية تدور بدوران الحالة الاجتماعية في المجتمع بأسره و هي مركز التنبه لنجيب محفوظ فى بمته عن تأثير الإقتصاد في المجتمع و ما يولده في حالة ضعفه و قلة موارده من تفشى الفساد و ذلك بتصوير المرأة الفقيرة بأنها بائعة الجسد.

من جهة أخرى ترى المرأة في الرجل منقذاً لها من همومها و احزانها الناجمة عن الشعور بالوحدة و انعدام العلاقة مع الجنس الآخر.

هذه الحالة تصوير للمرأة في الطبقة العليا من المجتمع وكلا النوعين او الحالتين للمرأة (الفقيرة، بائعة الجسد و البرجوازية التي تبغي الخلاص علي يد الرجل) كانت هذه المرأة ضحية للفساد الناجم عن الطبقية غير العادلة.

اما المرأة في الطبقة الوسطى في تصوير نجيب محفوظ لها، فاكثر حظاً من مثيلاتها في الطبقتين السفلى و العليا فهي في الغالب امرأة شريفة التزمت التقاليد و لم تهم وراء الرجل فلم تقع ضحية المؤثرات الاقتصادية بشكل واضح.

من جهة أخرى نجد أن اسلوب نجيب محفوظ الادبي قد صوّر المرأة في الطبقة الوسطى تصويراً أعمق من غيرها في الطبقتين الفقيرة و البرجوازية ذلك لأنه ينتمي إلى هذه الطبقة و قد عاش في أوساطها لذلك نراه يستوفي حقّها من الوصف و بيان ما هو عليها.

الكلمات الرئيسة: المرأة، الطبقة الاجتماعية، الرواية الأدبية، الفلسفية، الادب العربي المعاصر، الادب القصصي، القصة الواقعية، المرأة، نجيب محفوظ.

السيرة الذاتية لنجيب محفوظ

ولد نجيب محفوظ في حي الجمالية بالقاهرة في ١١ديسمبر سنة ١٩١١ [(١)] ونشأ في أسرة من الطبقة المتوسطة[(٢)] تتميز بمحافظتها و تعلقها بالعادات و القيم.[(٣)]

انتقل مع اسرته في عام ١٩٢٤ من حي الجمالية إلى العباسية[(٤)]. وكان يقول: «ابتعدت عن الجمالية جسماً لكنني روحاً و قلباً لم

١. استاذ مساعد في جامعة اعداد المدرسين، طهران، ايران

٢. طالب الدكتوراه بجامعة طهران، طهران، ايران

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

ابتعد عنها» لأنه في حي الجمالية عرف تفاصيل الحياة الشعبية التي انعكست على أدبه و قد ظل حريصا على استخدامه بصورة دائمة فمن حي الجمالية أخذ أسماء كثير من رواياته مثل «خان الخليلي» و «زقاق المدق» و «بين القصرين».(٥)

قرأ نجيب أهم أعمال الكتّاب العرب بعد أن أكمل دراسته في الثانوية ثم دخل جامعة فؤاد الاول (جامعة القاهرة حالياً) في قسم الفلسفة في كلية الآداب.

و في مستوى الماجستير(٦) اعتراه حالة من الصراع النفسي بالنسبة للأدب فكلّما تقدم في الفلسفة ازداد من حدّة التمزق المؤلم في نفسه – على حد قوله – و بعد تأمل وصراع كثير انتخب الادب.(٧)

بعد تطور في هذا الحقل احتل عدة مناصب و حصل على الجوائز العديدة و على رغم كونه من الطبقة المتوسطة عالج في اعماله و انتاجه مشاكل الانسان حوله باجمعه.(٨)

يحب نجيب موطنه حباً شديداً و يريد وئام و اتحاد سكان مصر الاهلي و يأمل تضامن العالم العربي فلم يترك مصر إلاّ مرّتين و علي حد قول غالي شكري، القناة الرئيسي لادب نجيب محفوظ العالمي مرّ من الداخل.(٩)

وقد اراد في بداية أمره أن يؤلف اربعين رواية عن مصر القديمة ولهذا كتب الأعمال الرومنطيقية التاريخية الثلاث أي «عبث الاقدار» و «رادوبيس» و «كفاح طيبة» ثم انصرف عن هذه المدرسة و أقبل على الواقعية و كتب سبع روايات في المرحلة الواقعية النقدية منها: «القاهرة الجديدة» و «خان الخليلي» و «زقاق المدق» و «بداية ونهاية» و في المرحلة الواقعية التسجيلية له ثلاثيته المعروفة: «بين القصرين، وقصر الشوق والسكرية» ثم بعد الفترة التي استغرقت خمس سنوات أقبل على الرواية الفلسفية(١٠).

وأخرج عصارة حياته و نتيجة تأملاته في رواية «أولاد حارتنا» التي أدت إلى إثارة الضجيج و الحيص و البيص في الأوساط الادبية والدينية حتى اغتيل اغتيالاً فاشلاً من جانب المتطرفين و المتزمتين، كاد يؤدي إلى موته.

كان نجيب يندد باللغة الدارجة ويسميها مرض اللغة(١١). واستطاع أن يحصل في سنة ١٩٨٨ م علي جائزة نوبل للآداب وكان هو اول كاتب عربي من القلائل الذين حازوا – غير مسيحي و لايهودي – على هذه الجائزة وقد لقبته مجلة لوموند الفرنسية «ملك الرواية العربية»(١٢).

صدى المرأة ودورها في أعماله الواقعية النقدية

هناك دلائل تشير إلى أن نجيب محفوظ يهتم بقضايا و مشاكل المرأة اهتماماً كبيراً فبينما نجد في أعماله الادبية ابطال الرجال قد تأثروا بالواقع المتأزم و عانوا من وطأته و عبروا من هذا الواقع بالقول والفعل، فان الشخصيات النسائية التي تقوم بدور البطولة قدمت لنا وكانها تجسيد كامل لظروف وحركة الواقع المتأزم في المجتمع.

في الروايات الاربع والتي تمثل مرحلة الواقعية النقدية لدى المؤلف و هي روايات: «القاهرة الجديدة وخان الخليلي وزقاق المدق وبداية ونهاية» نلاحظ التركيز على ظاهرة ازدواج النظرة إلى بعض القضايا الأساسية في المجتمع كقضية الدين و العلم وقضية المرأة ودورها في المجتمع وقد لجأ المؤلف إلى استخدام أسلوب الحوار والجدل بين الشخصيات للكشف عن طبيعة الصراع الفكري الدائر حول هذه القضايا في المجتمع ملتزماً بجانب الحياد بقدر الامكان رغم حبه الشخصي للفكر التقدمي الاشتراكي كما صرح في اكثر من مناسبة خلال أحاديثه ولقاءاته مع النقاد وفي تناوله لازدواجية النظرة الى المرأة في المجتمع المصري قدم لنا مثلاً محنة امرأة الطبقة المتوسطة التي عاشها ويعرف الكثير عنها من زوايا متعددة منها زاوية الفكر الرجلي وتصوره لدورها في الحياة كما في الحوار الدقيق التالي والذي بدأه «أحمد بدير» في القاهرة الجديدة بسؤال لزملائه طلبة الجامعة عن رأيهم في المرأة فيجيب، «مامون رضوان» أحد اعضاء إخوان المسلمين: «أقول ما قال ربّي فان رغبت في معرفة اسلوبي الخاص فالمرأة طمأنينة الدنيا وسبيل وطيء لطمأنينة الآخرة»(١٣).

من ناحية اخرى «علي طه» الإشتراكي يبدي رأيه في هذا المجال قائلاً: «المرأة شريك الرجل في الحياة ولكنها شراكة دعامتها _ في نظري _ ينبغي أن تكون المساواة المطلقة في الحقوق و الواجبات»(١٤).

فيتناول المؤلف في هذا الصدد، النظرية الثنائية إلى المرأة و علاقتها بالرجل في المجتمع.

من زاوية أخرى وفي مسألة الزواج يسأل نفسه هل هي تقوم على المادة والجشع أو على الحب والتفاهم والمساواة فيقدم لنا حواراً في رواية «خان الخليلي» بين أحمد عاكف و أحمد راشد فأحمد عاكف استمد ثقافته من الغزالي وإخوان الصفا والمنفلوطي

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

وشوقي ونيتشه فمن اجله يقول: «ان المرأة في الحقيقة هي البغي فهي المرأة الحقيقية وقد جلت عن وجهها قناع الريا فلم نشعر بضرورة ادعاء الحب والوفاء والطهر»[١٥].

فقد تشاءم عاكف بالنساء بسبب فشله في حبه خلال فترة المراهقة وفي موقف ثاني يحكي المؤلف من احمد عاكف: «صار دأبه بعد ذلك ذم النساء ورميهن بكل نقيضة فهن حيوانات ماكرة ومكرهنّ سيء قوامه الطمع والكذب والتفاهة. انّهن اجساد بلا روح إنهن مصدر آلام الانسان وويلات البشرية وما أخذهن بظاهر العلم والفن إلاّ للخدعة يختفين وراءها ريثما يوقعن في شباكهن الضحايا ولو لاشهوة خبيثة القيت في غرائزنا ما ظفرن برجاء ولامودّة ...وهن ...وهن...»[١٦].

فمن الناحية السيكولوجية نرى انّ إخفاقه في الدنيا أدى إلى أن يتخذ موقفاً سلبياً بالنسبة للنساء وعلى هذا الغرار فشله إزاء النساء قد صيّره عدوّا لهن.

ان انفعاله للمرأة حقيقي بالغ أعماقه وسرعان ما يذكر تاريخه القديم الحديث مع المرأة فيثور، ويساوره الشعور الطافح بالحبّ. ثم يذكر نجيب محفوظ في هذه الرواية وجهة نظر احمد راشد المنافس القديم له، ان احمد راشد، درس افكار فرويد وماركس وانجلز ويحترم العلم ويؤمن بقدرة العلم على تأمين سعادة الانسان وتحريره من أسر الظلم والاضطهاد. لذا فهو يري أنه قد يمكن أن تغلب النساء في مجال تحصيل العلم على الرجال ويستنكر زواج الكهل الدميم «سليمان عته» بالفتاة الصغيرة السن «كريمة العطار».

وقد كان له رأي فيما يخص ظاهرة استغلال المرأة مضمونه المساواة بين الرجل والمرأة كما يعتقد بان اضطراب العلاقات بينهما في المجتمع يؤدي الى سوء توزيع الثروة إلاّ ان الاشتراكية ستقضي على هذا الاستغلال وعدم المساواة.

وفي موضع يذكر أحد الشخصيات الرئيسية باسم المعلّم كرشة في مشهد من زقاق المدق فكرة نيتشه حول النساء قائلاً: «مغفل من لايبيت امراته بالعصا»[١٧].

من جانب آخر نستطيع ان نرى المرأة بمنظارين الطبقي الاجتماعي او العائلي؛ بعد دراسة الروايات الواقعية النقدية لنجيب محفوظ. فمن حيث الموقع الطبقي تتعلق باحدى الطبقات الثلاثة.

أ- المرأة الفقيرة: مثل «احسان شحاتة» في القاهرة الجديدة و «حميدة» في زقاق المدق و «نفيسة» في بداية ونهاية وكانت كل إمرأة من هؤلاء النساء ضحية الظروف الاقتصادية والاجتماعية السائدة آنذاك فضلاً عن فساد العلاقات الاجتماعية التي أحاطت بكل واحدة منهن.

ب- مرأة الطبقة الوسطي: مثل «نوال» في خان الخليلي و «بهية» في بداية ونهاية.

ج- مرأة الطبقةالارستقراطية: مثل «تحية حميديس بك» و «كريمة احمد بيك يسري» في بداية ونهاية[١٨].

و من حيث الدور الذي تقوم به في الاسرة فيمكن ان يكون لها الأدوار التالية:

١- المرأة الام مثل «ام نفسية» في بداية ونهاية

٢- المرأة الزوجة مثل «احسان شحاتة» في القاهرة الجديدة

٣- المرأة الأخت مثل «نفيسة» في بداية ونهاية

٤- المرأة العشيقة مثل «حميدة» في زقاق المدق.

١- المرأة من حيث الموقع الطبقى

والآن سنتناول الادوار هذه بشيء من التفصيل:

أ) امرأة الطبقة الفقيرة: قدم المؤلف لنا «احسان شحاتة» في القاهرة الجديدة طالبة في المعهد العالي للتربية الرياضية في القاهرة كانت تعيش مع ابويها وسبعة من الاخوة والأخوات في فقر مدقع. كانت احسان جميلة ولكن شعورها بفقر الأسرة غلب على أي شعور آخر و لم يكن يعرف من والديها الاّ سوء الاخلاق والفساد. فكان دخل الأسرة من محل صغير لبيع السجائر لايفي باحتياجات العائلة الكثيرة العدد. اصبحت احسان وتحت هذه الظروف واثر اجبار أبيها عشيقة أحد الوزراء ثم تزوجت سكريتره، وقد كان سكريتر الوزير نفسه ضحية للفساد السياسي والاجتماعي المتفشي آنذاك. قال والدها مرة: ضاعت حياتي حقاً ولكن البركة في احسان[١٩].

في مكان آخر شاهدت احسان شاباً جالساً بجانب أبيها في الدكان فأدركت أنه يساومه في عرضها إلا أنها لم تقبل هذه الظروف. هذا و «برغم من أنَّ نجيب محفوظ يساير العصر ويري دوراً جديداً للمرأة وهو العمل والانفاق على الأسرة كالرجل الا أنّه في حياتها الاخلاقية لايساويها بالرجل[٢٠]». ولهذا نرى ابو احسان الفاجر يقول لها متأسفاً على ضياع شاب موسر: «انّك مسؤولة عنا جميعاً وخصوصاً اخوتك السبعة»[٢١].

وفي رواية زقاق المدق نرى «حميدة» و هي فتاة جميلة، محبة للمادة، مجهولة الابوين وكانت تعيش مع امرأة تبنتها ورعتها منذ

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

عهد الطفولة.

إن سكان هذا الزقاق ولاسيما النساء يعشن في الظروف الاقتصادية السيئة التي سادت مصر في الثلاثينيات ومع نشوب الحرب العالمية الثانية يتضاعف الفقر والبؤس بين سكان الزقاق وخاصة النساء ويزداد تدهور القيم الاجتماعية بين السكان.(٢٢) وتزامن هذا مع اجراء الانتخابات المحلية في الحي وكانت هي التي أدّت إلى حضور ابراهيم فرج القواد في الزقاق.

نجح هذا القواد في لقاء حميدة وعقد معها صلات قوية وشيئاً فشيئاً شجعها على السير في طريق الانحراف حتى اصبحت عاهرة محترفة. حيث استطاعت أن تحصل على المال والخروج من دائرة الفقر التي أمسكت بتلابيبها.(٢٣)

بعبارة اخرى إنّ «معظم الشخصيات النسائية في زقاق المدق لاتفعل شيئاً ضد الفساد السائد اللهم الا الشكوي بالكلام والصراخ فقط. أما «حميدة» فهي وحدها التي تترجم شكواها الى سلوك عملي.

لجأت برغبتها الى الدعارة وهذا السلوك يمكن أنْ يفسر من ناحية أخرى على أنه احتجاج على النظام الاجتماعي والأخلاقي السائد آنذاك وإدانة للنظام السياسي الحاكم الذي لم يمكن افراد الطبقات الدنيا من الشعب مثل حميدة من أن يعيشوا حياة كريمة بشكل معقول»(٢٤).

وبرغم توضيح نجيب محفوظ لدور الفقر او الظروف الاجتماعية في انحراف المرأة وسقوطها كما يقول: «وكانت الحرب بآثارها المادية والاجتماعية اول محرك لمأساة الزقاق التي أدَت بحميدة الى الانحراف» الا انه يقرر على لسان بطله ابراهيم فرج انها «عاهرة بالسليقة» وإنها «نبع أبالسة» ورغم محاولة نجيب محفوظ لأن يرسم للمرأة صورة محايدة، مساوية للرجل الاّ أنها تظل صورةعقلية ويقع نجيب محفوظ بشعوره حين يرسم صورة المرأة التقليديةالراسخة في وجدانه كرجل ورث تراثا ابوياً طويلاً ويصور نجيب محفوظ المرأة تصويراً سلبياً تقليدياً و ان أسبغ عليه بعض الايجابية الظاهرة التي سرعان ما تتلاشى وتسقط المرأة في الرذيلة بالمفهوم التقليدي(٢٥).

من ناحية أخرى ينتقد المؤلف في رواية زقاق المدق بشدة النظام الاقتصادي والاجتماعي ويندد به لأّنه يستغل المرأة ويضطهدها. فيؤكد على استخدامه لشخصية العاهرة أو «المومس» على حد قوله في رواياته فحينما سئل لماذا تحتل المومس مكانة كبرى في كتاباتك؟ اجاب: «المومس تنفع الناقد الاجتماعي جداً لانك تواجه بها شخصيات بارزة ظاهرها وباطنها الدعارة، بينما هذه ظاهرها الدعارة وباطنها يمكن أن يكون البؤس ولذا فهي مثال صالح للنقد القاسي»(٢٦).

وفي بداية ونهاية نواجه بشخصية «نفيسة» على أنها صرخة احتجاج من جانب المؤلف ضد استغلال النساء في المجتمع. مات أبوها وكان لها من العمر ثلاثة وعشرون سنة لامال لها ولا جمال ولهذا بدأت تعمل في مهنة الحياكة لمساعدة أسرتها مادياً وكان عملها اليومي عملاً روتينياً رتيباً وحياتها الأسرية كئيبة وجافة تخلو من كل ما يبعث النشاط والحيوية وكان اول رجل يبعث فيها الثقة جابر سليمان البقال الذي أقنعها بأنها أنثي عادية تحظى بالصحة ولاتقل عن غيرها من النساء فاستسلمت له فاستغلها جسدياً لمتعتها حيث هجرها دونما سبب واضح. تركها تتلوي حسرة وظلت فريسة لأفكار شتي مضنية وأحاسيس من الأسى والأسف يعتصر قلبها كل الألم وتحت وطأة هذه الظروف الاقتصادية والاجتماعية الصعبة والتي لم تكن لديها القدرة علي مقاومتها اصبحت عاهرة محترفة خلال فترة حيث صارت الدعارة مصدر دخلها الرئيسي وتساعد الأسرة دون علم أحد، بينما هي تمارس هذا العمل في بيت الدعارة اذ يلقي القبض عليها وهي تحرص حرصاً شديداً علي المحافظة على اسمها وخاصة سمعة شقيقها حسنين وهو ضابط وبعد معرفة أخيها حسنين لهذا الامر من قسم الشرطة حيث ذهب لتسلمها وسار معها عائداً الى المنزل واثناء سيرهما معاً في الطريق الى المنزل حاولت أن تهديء من روعه وتستميحه الغفران فتوسلت اليه ألايحاول قتلها خشية أن يفقد شغله ومستقبله وكررت هذه الجملة عدة مرات «لا اريد ان يمسّك سوء بسببي»(٢٧) وعندما شعرت أن توسلها واستجداءها لن ينفعها طغى عليها شعور جارف بالعار وقررت الانتحار قفزاً في النيـــل لتتحمـــل بنفسها المسؤولية وأن تنقذ شقيقها من أي عقاب.

و «كان لابد أن يقع نجيب محفوظ في التناقضات فهو يبيح للمرأة العمل والكسب المادي لكنه لا يبيح لها الحرية الشخصية. و هو يبيح لها الحب لكنه يعاقبها بالسقوط اذا أحبت وهو يشترط عليها الزواج يتهمها بالتحفظ وعدم الاحساس بالحب»(٢٨).

هذه كما نرى صورة «نفيسه» رسمها لنا المؤلف في بداية ونهاية؛ امرأة فقيرة نشأت في بيت فقير ومن ثم صارت ضحية لظروف اقتصادية واجتماعية وهي لم تستطع مقاومتها فصارت

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

عاهرة تبيع جسدها لكنها ظلت نفساً وروحاً مسؤولية اقتصادية جديدة على المرأة لكنه يظل يحكم عليها بالسقوط اذا مارست في حياتها الشخصية ما مارسه الرجل وهي التي تسقط وحدها وعليها يقع عقاب الكاتب في معظم المواقف»[٢٩] مثل شهير في المجتمع العربي يستعملونه «ان شرف البنت كعود الكبريت لايولع الا مرة واحدة»[٣٠].

ب) إمرأة الطبقة المتوسطة: على النقيض من الصورة التي رسمها المؤلف في رواياته للمرأة الفقيرة هنا رسم صورة المرأة في هذه الطبقة صورة حيوية، مشرقة مفعمة تتمثّل في كل من «نوال» في خان الخليلي و «بهية» في بدايه ونهاية تحظى بحياة ملائمة وحالة مادية واجتماعية وعاطفية مستقرة. نرى في خان الخليلي نوال «في السادسة عشرة من عمرها على اكبر تقدير، متوسطةالقوام، رشيقة اللفتات بيد أن وجهها اجمل مافيها حقاً واجمل ما في وجهها عيناها النجلاوان»[٣١].

ورغم أنها تتقدم في دراستها الثانوية بشكل ظاهر وبنجاح ورغم استمرارها في الدراسة «وقد انضمت الى قافلة العلم ولكن العلم ليس ما تنشده ولا المدرسة بالمأوى الذي يهفو اليه فؤادها فأحلامها لا تفارق البيت ولا تزال امها استاذتها الأولى تتلقى عنها فنون الحياة المنزلية من طهي وحياكة وتطريز ومارأت في العلم يوماً إلا زينة تحلّي بها أنوثتها وحلية تغلي من مهرها فتركزت حياتها في هدف واحد: القلب أو البيت أو الزواج. أليست اول دعاء دعيت به «العروس» وانه أجمل دعاء وانها لتتلهف على أن تكون وترقب حظّها في صبر ورجاء ولذلك قدست الزواج قبل اهليّتها بدهر طويل واحبت «الرجل» وهو أمل مجهول وعاطفة غامضة فكانت ثمرة ناضجة دانية القطوف ترصد من يجنيها»[٣٢].

ورغم تمتع نوال بحياة مستقرة ومطمئنة لم تبذل جهداً لتحصيل ودراسة العلم وكانت رغبتها الحقيقية تنحصر في الحصول على رجل أو بالأحرى على رجل العمر بأسرع ما يمكن كي تبدأ في تكوين أسرة خاصة بها تملأ وتعج بالأطفال وتموج بالحياة التقليدية اليومية كما ألفتها.

هذه نظرة تقليدية للحياة مما أثار غضب أحمد راشد وهو شاب اشتراكي كان قد التقى بها منذ أمد قصير لتدريسها عندما لاحظ امتناعها عن العلم والمعرفة قال لها ذات مرة: «يخيّل اليّ أنّك لا تحبين العلم كما يجب وان لم ينقصك الاجتهاد أو حسن الفهم فاحبيه كما تحبين الحياة فهو منها بمثابة العقل من شخص الانسان وينبغي أن يتغذى به عقلك ويتمثله كما يتغذي جسمك بالطعام ويتمثله، اين الشوق الى اسرار الوجود؟ ... اين اللهفة على المعرفة؟... لايجوز أن يتخلف قلب المرأة عن قلب الرجل في طريق العرفان والمجهول ...»[٣٣].

اما نوال فلم تهتم ولم تفطن الى مرمى كلام احمد راشد وهجرته الى رجل آخر هو احمد عاكف عندما سمعت أنه أعزب تضاعف شغفها ورغبتها ولكن سرعان ما نبذته أيضاً لتردده وفشله في الحياة. فأخذت نوال تبحث دائبة عن «رجل العمر» الذي يتسم بالجرأة والحيوية والرغبة في الزواج فوجدت ضالتها المنشودة في «رشدي» الأخ الأصغر سناً لاحمد عاكف وقد رأت فيه الحيوية والنشاط والجرأة وما هي الا فترة قصيرة حتى وقع في حبها وصار متيمّاً بها وكانت نوال في كنفه تشعر بالسعادة العارمة والطمأنينة التامة ولكن لاتدوم سعادتها اذ سرعان ما أصيب رشدي بمرض السل ثم فارق الحياة وكان موته هذا إنذاراً باخفاق الامل وفقدان التوازن بل وانهيار كامل أصاب نوال بعد ذلك.

هذا والشخصية الثانية في بداية ونهاية هي «بهية» صورة مماثلة تقريباً لصورة «نوال» في خان الخليلي.

كانت بهية فتاة مكتملة الأُنوثة تتسم بالحيوية والنشاط وحب الحياة. تنتمي الى أسرة مستقرة ماديّاً واجتماعياً. لم تكمل تحصيلها ودراستها مثل نوال واكتفت بالدراسة الابتدائية وبقيت في البيت تنتظر رجل العمر حتى تتزوجه وكانت الدراسة والعلم في نظرها اموراً شكلية بالنسبةلها وغير ضرورية لمستقبلها لان هدف هذه الطبقة الحصول على رجل العمر أو شريك الحياة والاعتناء بجسدها وجمال بشرتها وجاذبيتها لاجتذابه وهذه هي الصورة التي رسمها محفوظ لإمرأة الطبقة المتوسطة في مصر.

والواقع أن المؤلف أجاد الوصف لشخصيات الطبقة المتوسطة ولم يتقن ذلك في رسم وتوصيف وتصوير شخصيات العمال والفلاحين او الارستقراطيين ولم يجد حرجا في ان يقول: «أنا كاتب الطبقة المتوسطة لأنّي من الطبقة المتوسطة ولكن يوجد كتّاب لهذه الطبقة يعبرون عن شخصيتها وهناك كتّاب يعتبرون من نقادها وأنا من الطائفة الثانية على وجه التعيين وانا لم أكتب عن طبقة العمال والفلاحين لأني لم أعرفها بل أكتب عن الشخصيات الشعبية».[٣٤] وقصده من «الشعبية» الطبقة الوسطى او الفقيرة في القاهرة وصراحة يعترف بأن معرفته كانت قاصرة أو محدودة.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

وربما كان الانتماء الطبقي لنجيب محفوظ الى الطبقة المتوسطة وهو «ابن الطبقة الوسطى»[٣٥] عاملاً اساسياً في براعته ومهارته في تصوير ورسم نساء هذه الطبقة فكثيراً مايعتمد على التفاصيل والدقة في وصف الواقع المحيط بالشخصية ويصوّرها بدقة كأنها تبرز امام الشخص من لوحة فنية موحية حقيقية.

ج) إمرأة الطبقة الارستقراطية: كانت شخصيات نساء الارستقراطيين اللاتي يقدمهن لنا غير مقنعة وربما يعود إلى نفور المؤلف من الأرستقراطيين عموماً لأنّ نزعته اشتراكية فاذا تناول المؤلف هذه الطبقة نقدها، ونظرة عابرة لشخصيات متقدمة تدلنا على عجز وقصور المؤلف في هذا الصدد[٣٦].

في رواية القاهرة الجديدة يقدم لنا المؤلف صورة «تحية حمديس بك» و هي فتاة في ريعان الشباب وتنتمي الى أسرة غنية و مثقفة وتتميز بالغرور والتعالي. اتفق «محجوب» مع أسرتها على القيام بزيارة أهرام الجيزة حيث ذهبت «تحية» ايضاً بنفسها هناك وفي ممر الأهرام دار حديثهما حول موضوعات عامة و لم يتمكن محجوب أن يبرز عواطفه بالنسبة لها وعندما حاول أن يقبلها دفعته بعيداً وتركت المكان عن غير رضى. ومحجوب الذي اعتراه الوجوم والارتباك تمتم ساخراً: «انّ اربعين قرناً تنظر إلى مأساتي من فوق هذا الهرم»[٣٧].

يلاحظ أن المؤلف في رسمه ومعالجته للمرأة الأرستقراطية لم يتجاوز الحدود السطحية في التصوير والوصف وبهذا الاسلوب اراد أن يكشف عن مدى احتقاره للأرستقراطيين طريقاً وشخصياًوتعليقاته اللاذعة تبيّن مدى سخريته ونفوره منهن كما يقول «هولاء النسوة ما اكثرهن وما أجملهن ولكن من المؤسف حقّاً أن كل امرأة يحوم حولها رجل واكثرهن يتكلمن الفرنسية بطلاقة وهنّ المسلمات الظوالم»[٣٨].

شخصية أخرى قدمها لنا محفوظ من الطبقة الارستقراطية «كريمة احمد بك يسري» مجرد اسم فلا يعرفها. رسم هذه الاسرة باحتقار و لم يورد ايّ معلومات إلاّ معلومات عابرة من خلال شخصيات اخرى «كانت في السادسة عشرة، ترتدي فستاناً أبيض هفهافاً تعصب رأسها بايشارب منمنم، ذات قامة نحيلة وصدر ناهد وبشرة نقية وقد اعجبه النظر إلى ساقيها المدملجتين اللتين تتثاوبان الارتفاع والانخفاض فلم يكد يتبيّن وجهها واختفت وراء الجناح الأيمن قبل أن يستدرك مافاته منها»[٣٩]. وهذه هي الصورة التي رسمها لنا لهذه الطبقة.

٢- المرأة حسب الأدوار التي تمارسها (الام، الزوجة، الأخت، العشيقة):

بلغت قدرة المؤلف ذروتها في ترسيمه ومعالجته الفنية لشخصيات الطبقة الفقيرة والمتوسطة في القاهرة عندما يصور شخصية الام. لانبالغ إذا قلنا إن نجيب محفوظ يعتبر من الكتاب القلائل في العالم العربي الذي أتقن في تعبير ورسم دور الأم والأمومة ورفع دورها ومكانتها الى مرتبة تدنو و تقرب من التقديس والاجلال.

ففي «بداية ونهاية» تحمل ام نفيسةرغم موت زوجها الفقير فجاة وتعقيد ظروف الحياة حولها تفرض سياجاً من الحمايةحول أسرتها. وضاعف مسوولية أسرتها تقاعس ابنها الاكبر عن أي مسؤولية تتعلق بالأسرة.

وكان ابناها حسين وحسنين في المدرسة الثانوية بينما كانت ابنتها في الثالثة والعشرين من عمرها. لم تكن لدى ام نفيسة أي شهادة دراسية و لم تحمل إلاّ ثقافة ضئيلة تسني لها أن تقتحم الحياة بشيء من اليسر. فكان المعاش الذي تحصل عليه بعد وفاةزوجها ضئيلاً جداً بحيث لايفي لتلبية الحاجات الضرورية لأسرتها الا انّها لم تستسلم امام الحياة بل تسلمت المسؤولية لمواجهة الموقف الصعب الناجم عن وفاة زوجها.

فباعت بعض اثاث بيتها وانتقلت من المسكن الصغير الذي كانت تسكنه مع أسرتها الى مسكن اصغر وارخص للتخفيف من التكاليف وهي تحصل على المعاش الضئيل مما ترك زوجها لها ولأسرتها. اقنعت ابنتها نفيسة بتعلم الخياطة حتى تساعد على تأمين معاش الاسرة.

ومن ناحية اخرى حرضت حسين بعد اجتياز المرحلة الثانويةوعن طريق احمدبك يُسري حرضته على الالتحاق بالوظيفة الحكومية واصبح موظفاً فيها وكان حسنين بتشجيع ومساندة مالية ومعنوية من الام وشقيقته استمر في مواصلة تعليمه العالي في مدرسة الضباط إلى أنْ تخرج منها فكانت ام نفيسة تتحمل أية مسؤولية تتعلق بأسرتها سواء كان الأمر يرتبط بالابناء أو البيت، واستطاعت أن تطبقها وكانت ناجحة ولكن «في سبيل الأسرة انهدَّدت حيلها وهرمت في عامين كما لم تهرم خلال نصف قرن من الزمان، فنحلت وهزلت حتى استحالت جلداً وعظاماً»[٤٠].

ودفع هزالها وضعفها الجسدي هذا، ابنها حسين الى التفكير ملياً فيما آل اليه امر امه اكثر من مرة: «يا لها من امرأة عظيمة شاء ان يبتلى اسرتنا بمصيبة قاصمة ولكن سبق لطفه فقدر ان تكون

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

هذه المرأة امنا ... ماذا يكون مصيرنا لولاها كيف غذتنا وكستنا؟ كيف سيطرت على توجيهنا؟ كيف نهضت بضرورات أسرتنا في هذه الظروف القاسية؟ يا لها من معجزة تحيّر العقول. حتى حسن أخي ففي ظني انه لولا المرحوم ابي لأمكن أن تجعل منه رجلاً غير هذا الرجل»(٤١).

فأمه تعد أشد افراد الأسرة اخلاصاً وتوازناً في سلوكها وايمانها: اخلاقها المرموقة ومحاولاتها الدؤوبة من أجل أسرتها تتجاوز بشخصيتها من مجرد امرأة لتصبح نموذجاً رفيعاً للتضحية ونكران الذات وكل الفضائل الانثوية.

استمر حديث حسين في مشهد آخر من هذه الرواية قائلاً: «ثم مدّ بصره كرة أخرى الى الارض المنبسطة، الصامتة الصابرة الخيّرة فذكر دون وعي أمّه! ... كهذه الارض الخضراء مبراً وجوداً والدهر يحرث بسنانه»(٤٢).

إن أمه عديمة النظير من بين النساء الأخريات، ففي تشبيه جميل حيث شبه أمه بألمانيا بين الدول «كألمانيا بين الدول قادرة على الإستفادة من كل شيء ولوكان زبالة»(٤٣)

وفي قسم آخر نجيب محفوظ يعترف بنفسه أن «اهم من هذا كله ان الشعور برابطة الأسرةكان ولا يزال قوياً في آل كامل بفضل الام قبل كل شيء»(٤٤). وفي المونولوج الأخر استمر محفوظ على طريق التجريد ويدلنا على صبر وعدم جزع أُمّ نفيسة أمام المصائب قائلاً: «وهذه هي الأسرة التي باتت مسؤولةعنها بلا معين بيد أنّها لم تكن من النساء اللاتي يفضفضن همومهنّ بالدموع وان حياتها الماضية وان امست حلماً سعيداً موليّاً الا أنّها لم تكن يسيرة خصوصاً في مطلعها حين كان المرحوم موظفاً صغيراً ذاجنيهات معدودات وقد علّمتها الصبر والجلد والكفاح. كانت دائماً قوية وكانت محور «الست» الاول بل كانت على الارجح تقوم بدور الأب»(٤٥).

اشرنا آنفاً ان النساء ينقسمن الى اربعة اقسام: المرأة الام التي بيّناها بالتفصيل سابقاً، امّا المرأة الزوجة فمثلها مثل «احسان شحاتة» في القاهرة الجديدة وضحناها في غضون أقسام أخرى وأكّدنا بسبب تفشّي الفساد السياسي والاقتصادي في البلاد وأثره على الاسر والذي اضطرب بناءه لهذا لا نرى دوراً يذكر للزوجة في الروايات الاربعة الاّ اننا نجد حضورها الضئيل في رواية القاهرة الجديدة وبسبب تلوّث البيئة اقتصادياً وسياسياً اصبحت الزوجة عاهرة ومومساً واستسلمت امام هذه الظروف المعقدة.

أمّا بالنسبة للمرأة الأخت فقدم المؤلف عينة «نفسية» في رواية بداية ونهاية ونرى فيها نكران الذات والايثار في سبيل انقاذ الأسرة وكما رأينا في النصّ فإنّ مصيرها أدّى الى الانتحار.

أمّا بالنسبة للمرأة العشيقة فنرى في هذه الروايات الاربعة «حميدة» في زقاق المدق فتاة مقطوعة النسب مغرمة بالمال و هذا الحب دفع بها الي أن تقع في فخ فرج ابراهيم القواد والفاسد مما جعله أن يستغلها كما يريد.

وفي خاتمة المقال نعود لنذكر أن نجيب محفوظ اجاد في الوصف والتعبير عن إمرأة الطبقة المتوسطة والأم، ثم عجز في تصويره للمرأة الأرستقراطية. اما نقطة اخرى يجب أن لا ننساها هي أنّ في كل روايات نجيب محفوظ تقريباً «كان معظم النساء يعانين من ظلم وجبروت الرجال تماماً وكن خانعات للرجال بدرجة أو بأخرى اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً. كانت قلوبهن مليئة بالأسى والطمع والشقاء واليأس.

كان بعضهن يكدحن ليل نهار لتوفير النذر اليسير من العيش لأسرهن بينما كان بعضهن الآخر لا يجدن ما يسد رمقهنّ أو رمق أطفالهن من الخبز و لم يكن لدى أي منهن بصيص من الأمل لتحسين أو لكسر آثار الجوع والفقر المسيطر على حياتهنّ اليومية»(٤٦).

من جهة أخرى و من خلال مطالعة وقراءة الروايات نستخلص أن «نجيب محفوظ الى جانب الامتاع الادبي والفني يريد أن يلفت نظر القراء والمسؤولين معاً الي ضرورة نبذ وطرد التقاليد والأفكار والعادات البالية التي عفا عليها الزمان فلم تعد صالحة للتعامل في العصر الحاضر فضلاً عن ضرورة الاصلاح في مصر، خاصة في مجال اوضاع المرأة ونظام التربية والتعليم وحتمية استخدام العلم الحديث بالإمكانية الهائلة لحل مشكلات المجتمع في كل المجالات التي تحتاج الى ذلك»(٤٧).

فانه «يعتبر اكثر تقدماً من الأدباء الآخرين وقد تعرض في كتاباته لقضايا اجتماعية متعددة لكنه في موضوع المرأة ظل حريصاً حذراً لا يمس العقائد ولا يغير من القيم الاخلاقية النابعة من قوانين الزواج على رغم وقوع معظم أبطاله وبطلاته في الحب»(٤٨).

النتائج

نستخلص مما طالعنا من الادب الواقعي النقدي لنجيب محفوظ و في مجال اتصاله بقضية المرأة الى:

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

١) ان المرأة في الطبقة الفقيرة صارت عبثاً في يد الأشخاص الانتهازيين.

٢) المرأة في الطبقة الوسطى تبتغي الحصول على رجل العمر وترى في الحصول على العلم مقدمة للحصول على الرجل المناسب الذي يعطيها حقها من المهر و الرعاية اللازمة.

٣) المرأة الارستقراطية امرأة تافهة في توجهاتها وتصوراتها لمحدودية تفكيرها وغرورها.

٤) ان نجيب محفوظ يرى في المرأة الفقيرة أنها لم تحظ باحترام المجتمع بل وقعت ضحية في يد أهل الفساد فاما المرأة في الطبقة المتوسطة وان لم تكن تصاب بما أصيبت به المرأة الفقيرة لكنها وقعت تحت تأثير نظرةالمجتمع لحملة الشهادات العليا وما تنم عنه النظرة هذه من الاحترام لهؤلاء فأخذت على عاتقها التضلع بالعلم و الاشتغال بمواصلة الدراسة إلى الحد الذي يعطيها مكانة مرموقةويوجه الرجال نحوها طلباً للزواج منها ومن ثم تغالي في مهرها لكن المرأة في الطبقة البرجوازية هي غيرها في الطبقتين الأخريين فهي تعد نفسها ذات المكانة والمنزلة الرفيعة و يظهر ذلك في تصرفاتها من خلال سعيها للفت الانظار حولها.

٥) ان المرأة في روايات نجيب محفوظ سلبية ضعيفة (دون لحاظ موقع المرأة الأُم) لا وجود لها الا من خلال رجل.

واخيراً يعكس الادب العربي الحديث – كما شاهدنا – نظرة المجتمع الابوي التقليدي للشرف وارتباطه بعذرية البنت.

الهوامش

١- شندي، اميمه محمدمحمد؛ مصر في قصص نجيب محفوظ، رسالة ماجيستر جامعة عين‌شمس، ١٩٩١، ص ٨

٢- النقاش، رجاء؛ في حب نجيب محفوظ، الطبعة الاولى، دار الشرق، ١٩٩٥، ص ١٧

٣- رجب، أدهم؛ صفحات مجهولة من حياة نجيب محفوظ، مجلة الهلال عدد خاص عن نجيب محفوظ، ١٩٧٠، ص ٩٨

٤- الغيطاني، جمال؛ نجيب محفوظ يتذكر، اخبار اليوم، ١٩٨٧، ص ١٨

٥- القضاة، محمدأحمد؛ التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ، الطبعة الاولى، الموسسة العربية للدراسات و النشر، ٢٠٠٠، ص ١٢

٦- news←http://www.Gooyanews.previous.com

٧- نفس الموقع، من مقالة تحت عنوان «دردسرهاي جايزه نوبل به قلم آرام بختياري»

٨- نفس المقالة و الموقع

٩- القضاة، محمد أحمد؛ التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ، ص ١٨

١٠- ياغي، عبدالرحمان؛ في جهود روائية، الطبعة الاولى، دارالفارابي، ١٩٩٠، صص ١١٣-١٢٤ و هذه الاقسام التي قدمت عن عبدالرحمان ياغي.

١١- ياروين رابرت، نگاهي به ادبيات معاصر عرب، ترجمه كريم يوعي مطلق كتاب ماه و ادبيات و فلسفه شماره ٤٨، ١٣٨٠ ه.ش، ص ٣٦ تا ٣٩

١٢- محفوظ، نجيب؛ المؤلفات الكاملة، المجلد الاول، الطبعة الاول، مكتبة لبنان، ١٩٩، مقدمة ص «ط حتي م»

١٣- نفس‌المصدر، رواية زقاق المدق، المجلد الاول، ص ٤٣٢

١٤- نفس‌المصدر، ص ٤٣٢

١٥- نفس‌المصدر، رواية خان الخليلي، المجلد الاول، ص ٥٣٨

١٦- نفس‌المصدر، ص ٥٣٨

١٧- زقاق المدق، المجلد الاول، ص ٦٨٥

١٨- فكرة تقسيم النساء على هذا المنوال للدكتور ابراهيم الشيخ في كتاب «المواقف الاجتماعية والسياسية في ادب نجيب محفوظ» ص ٧٩ ولكن بسطنا هذه الفكرة و زدنا عليها.

١٩- محفوظ، نجيب؛ القاهرة الحديدة، السابق، ص ٤٣٧

٢٠- السعداوي، نوال؛ دراسات عن المرأة و الرجل في المجتمع العربي، الطبعة الثانية، الموسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ١٩٩٠، ص ٧٩٣

٢١- القاهرة الجديدة، السابق، ص ٤٣٧ و ٤٣٨

٢٢- الشيخ، ابراهيم؛ ١٩٨٧، مواقف اجتماعية و سياسية في ادب نجيب محفوظ، مكتبة الشروق، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٨٧ ص ١٣

٢٣- زقاق المدق، السابق، ص ٤ و ٧٩٣

٢٤- نفس المصدر، ص ٧٥٦

٢٥- السعداوي، نوال؛ السابق، ص ٧٩٤ - ٧٩٣

٢٦- محمدسعيد، فاطمة الزهراء، الرمزية في أدب نجيب محفوظ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ص ٣٨

٢٧- محفوظ، نجيب؛ بداية و نهاية، المجلد الثاني، السابق، ص

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

٣١٨

٢٨- السعداوي، نوال؛ السابق، صص ٧٩٦ و ٧٩٥
٢٩- نفس المصدر، ص ٧٩٣
٣٠- نفس المصدر، ص ٧٩٢
٣١- خان الخليلي، المجلد الاول، السابق، ص ٥٧٨
٣٢- نفس المصدر، ص ٥٨٠
٣٣- نفس المصدر، السابق ص ٥٨٠
٣٤- ياغي، عبدالرحمن؛ السابق، ص ٩٥
٣٥- شكري، غالي؛ المنتمي، الطبعة الثالثة، دار آلآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢، ص ٨٠
٣٦- الشيخ، ابراهيم؛ السابق، ص ٩١
٣٧- القاهرة الجديدة، السابق، ص ٤٩١
٣٨- نفس المصدر، ص ٤٦٧
٣٩- بداية و نهاية، السابق، ص ٢٦٥
٤٠- نفس المصدر، ص ٢٣٤
٤١- نفس المصدر، ص ٢٤٥
٤٢- نفس المصدر، ص ٢٤٥
٤٣- نفس المصدر، ص ٢٤٧
٤٤- نفس المصدر، ص ١٦٤
٤٥- نفس المصدر، ص ١٦٧
٤٦- شكري، غالي؛ المنتمي، السابق، ص ١٨٧
٤٧- الشيخ، ابراهيم؛ السابق، ص ١١٤
٤٨- السعداوي، نوال؛ السابق، صص ٧٩٦ و ٧٩٥

المصادر

١- رجب، أدهم، صفحات مجهولة من حياة نجيب محفوظ، مجلة الهلال عدد خاص عن نجيب محفوظ، ١٩٧٠
٢- السعداوي، نوال؛ دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٠
٣- شندي، اميمة محمدمحمد، مصر في قصص نجيب محفوظ، رسالة ماجيستر جامعة عين شمس، ١٩٩١
٤- شكري، غالي، المنتمي، الطبعة الثالثة، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٢
٥- الشيخ، الدكتور ابراهيم، مواقف اجتماعية وسياسية في ادب نجيب محفوظ، مكتبة الشروق، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٨٧
٦- الغيطاني، جمال؛ نجيب محفوظ يتذكر، اخبار اليوم، ١٩٨٧
٧- القضاة، محمد أحمد، التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ، الطبعة الاولى، الموسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠
٨- محمدسعيد، فاطمة الزهراء؛ الرمزية في ادب نجيب محفوظ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
٩- محفوظ، نجيب؛ بدايةونهاية، المجلد الثاني، الطبعة الاولى، مكتبة لبنان، ١٩٩٠
١٠- محفوظ، نجيب؛ المؤلفات الكاملة، المجلد الاول، الطبعة الاولي، مكتبة لبنان، ١٩٩٠
١١- النقاش، رجاء؛ في حب نجيب محفوظ، الطبعة الاولى، دار الشرق، ١٩٩٥
١٢- ياغي، عبدالرحمان؛ في جهود روائية، الطبعة الاولى، دار الفارابي، ١٩٩٠
١٣- ياروين، رابرت؛ نگاهی به ادبيات معاصر عرب، ترجمة كريم يوعي مطلق كتاب ماه، ادبيات وفلسفه، شماره ٤٨، ١٣٨٠ ه.ش
١٤- موقع http://www.gooya.com privius-news
في مقالة تحت عنوان «دردسرهای جايزه نوبل به قلم آرام بختياری»

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی